المحاضرة الثانية: نظريات نشأة اللغة الإنسانية

أصل اللغة أو اللغة الأصل السؤال المعضلة في فلسفة اللغة، لذلك نوضح بداية أن البحث في هذا الموضوع هو بحث مهم جدا في (فقه اللغة)، وهو بحث في اللغة الأولى أو الأصل الذي تحدث بها الإنسان الأول، وقد اختلف العلماء والباحثون في هذا الأصل (أي لغة تكلمها الإنسان الأول)، فضلا عن تفسير من أين حصله الإنسان ونظرا لاستحالة معرفة أي لغة تحدث بها الإنسان الأول لانعدام الأثر المادي لها، فقد ركزت الجهود على تفسير من أين أخذ الإنسان هذا الأصل ووضعوا لهما ثلاث نظريات مفسرة هي على النحو الآتي:

1- نظرية الوحي أو الإلهام أو التوقيف:

وهي نظرية ترى أن اللغة معطى إلهي؛ أي أن الله علم آدم أسماء كل شيء، وهو رأي قال به لأشياء فكانت تلك الأسماء هي مادة اللغة الأولى، ومن أشهر القائلين بهذا الرأي من العرب القدامى (الجاحظ) و(ابن فارس) و(إخوان الصفاء)، ومن الغرب القدماء الفيلسوف اليوناني (هيراقليط) (ت 480 ق م)، ومن المحدثين (الأب لامي) في كتابه "فن الكلام"، والفيلسوف (دوبونالد) (ت 1840 م) في كتابه " التشريع القديم".

استند المعتمدون لهذه النظرية على نصوص دينية؛ فالمسلمون اعتمدوا على قوله تعالى: "وعلم آدم الأسماء كلها" وفسروا الأسماء على أنها اسم كل شيء، ومنهم من قال في تفسير ذلك إنه أعطاه المقدرة على التسمية ومنهم من قال أيضا إنه علمه اللغات أيضا لتبرير النقد الذي طال تفسير الآية الكريمة، وجاء في (سفر التكوين) من التوراة: "والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ثم عرضها على ادم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الانسان فوضع ادم اسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء والدواب والحقول"، فالنص التوراتي حين جعل آدم قادرا على أن يسمي وبإشراف من الله على عملية التسمية قد فسر كون اللغة إلهاما ووحيا من الله مع تمكين لآدم من تسمية ما يشاء بعد تمكينه منها.

وقد تعرضت هذه النظرية للنقد والرفض بالرغم من اعتمادها على نصوص نقلية دينية؛ فبعيدا عن المعترضين ممن يرفضون الاعتماد على الدين في تبرير الظواهر يرى الرافضون:

- أن النصين يؤكدان وجود أصل واحد لكل اللغات الانسانية، ولكن لا يصرحان ما هو، فصلا عن أن النص القرآني أول على أن التعليم هو تعليم لكل اللغات؟، بالرغم من أن الأسماء نفسها في الآية الكريمة قد اختلف في تفسيرها كما أوضحنا. 2_
- لو كانت اللغة توقيفية لما جاز أن ندخل فيها أسماء جديدة، وقد استدرك أصحاب النظرية على ذلك بأن التعليم يندرج تحته المقدرة على التسمية أيضا كما كان واضحا في النص التوراتي.

2 - نظرية المواضعة أو الاصطلاح أو التوفيق:

يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة رموز اتفق البشر الأوائل عليها فاصطلحوا ألفاظها ووضعوا مدلولاتها، وأخذها البقية من بيئاتهم اللغوية، ومن أشهر من قال بهذا الرأي عند العرب نجد هذا الرأي عند (ابن جني) في قوله: "هذا موضع محوج إلى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف". وعند الغرب

نجد من قال به اليوناني (ديموكريت) (ت ق5 ق م)، كما اعتمده بعض فلاسفتهم المحدثين من مثل (آدم سميث).

وقد رفضت هذه النظرية للاعتبارات الآتية:

- الافتراض بوجود تواضع يحتم بداية لغة سابقة تم الاتفاق بوساطتها، وهذه اللغة التي يتم التوقع وجودها منطقيا هي اللغة التي يبحث (فقه اللغة) تحديدا.

- حدث اتفاق بشر معينين على تسمية الأشياء حدث مهم من الناحية التاريخية وهو الحدث الذي لا نجد له دليلا في التاريخ كله المثبت منه والمكذوب وقد قال (ابن تيمية) في ذلك: "لا يمكن أحدا أن ينقل عن العرب، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا هذه الأسماء الموجودة في اللغة، ثم استعملوها بعد الوضع".

3- نظرية محاكاة أصوات الطبيعة:

أصل اللغة عند أصحاب هذه النظرية هو محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة من حوله، كأصوات الحيوانات وأصوات حركة النباتات والجمادات ؛ حيث حاول بمحاكاته للأصوات التي تصدر عنها أن يعبر عنها التعبير، وكان هذا التعبير في البداية مصحوبا بإشارات وايحاءات جسدية تم الاستغناء عنها تدريجيا. وقد استأنس (ابن جنّي) إلى جانب نظرية التواضع بهذه النظرية أيضا لتفسير عدد من مفردات اللغة التي فيها محاكاة للطبيعة في أصواتها؛ حيث أفرد لها في كتابه "الخصائص" فصلا كاملا عنونه (إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، ذكر فيه أمثلة من الكلمات التي كانت ألفاظها مماثلة للأصوات التي تصدرها في الطبيعة. واعتمد رأيه بعض المحدثين من مثل (إبراهيم أنيس) و(علي عبد الواحد وافي)، وأيد هذه النظرية من علماء الغرب الإنجليزي (ويتني).

وأهم رفض وجه لهذه النظرية عجزها عن تفسير مصدر وأصل عشرات الآلاف من الكلمات التي لا توجد علاقة صوتية واضحة بين ألفاظها وأصوات هذه الألفاظ في الطبيعة.

ختاما تبدو النظرية الأقرب إلى تفسير نشأة اللغة الإنسانية الأولى هي نظرية الوحي أو الإلهام أو التوقيف كونها النظرية الوحيدة التي تمتلك على الأقل نصا مثبتا لها في التراث الديني، فضلا عن كونها توافق جدا طبيعة النظام اللغوي المعقد بما فيه من علاقة بين الألفاظ والدلالات من أسماء وأفعال وأدوات وقبلها من أصوات أيضا، لكنها تبقى عاجزة عن تحديد أي لغة إنسانية تكلم بها الإنسان الأول، وبذلك تكون النظريتان الأخريان صالحتين لتفسير التطور اللغوي للمعجم اللغوي لأي لغة لا لتفسير نشأتها.